

اثر علم الكلام الاسلامي في الأدب

بقلم محمد موسى عفيفي

المدرس الأول بالمدرسة الابراهيمية الثانوية

مقررات :

- ١ -

درج الناس منذ فطرهم الله تعالى على تأثر ما شرع لهم من شرائع يناقشون أصولها ، ويعلمون أحكامها : يتدبرون معانيها ، ويفهمون مراميها ، ويؤولون متشابهها ، ويفسرون عويصها ؛ ويستخلصون لأنفسهم من هذه الأصول فروعا ليست سواء عندهم جميعا ، لأنهم فيما يستنبطون يستند بعضهم إلى ما هدتهم إليه عقولهم من الأخذ بظاهر نصوص الأصل ، وبعضهم لا يقنعون بذلك ويأبون إلا أن يمعنوا في التأويل والتخريج والتوجيه لمجرد شبهة عرضت لهم ، ولذلك اختلف أرباب الأديان التي سبقت الإسلام : كاليهود والنصارى وغيرهم في تفهم الأصول وما تلد من فروع ، وجادل بعضهم بعضا جدا لا عنيفا جر إلى افتراقهم فرقا عدة ، ولم يكن حظ الإسلام - الذي جاء بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، وأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية : كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه أحد أو شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم إليه راجعون « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » - لم يكن حظ الإسلام بأحسن من حظ الأديان التي سبقتة . فافترق المسلمون ، واختلفوا في تفهم أصول دينهم ، أو العقائد التي قام عليها علم الكلام ، وفيما يلي بيان العوامل التي كانت سبباً في هذا الاختلاف

- ٢ -

خفقت بنود الإسلام على عظم ما كان معروفاً من الأرض : كفارس والعراق وسورية وفلسطين ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من ممالك الأرض كجذر البحر المتوسط ، ومن سكان هذه الأقاليم النصارى ، واليهود ، والصابئة ، والمجوس ، وهم يختلفون جميعاً في عقائدهم ، فمرت تعاليمهم بحكم المخالطة والمجاورة إلى نفوس المسلمين ، التي تأثرت بها إلى حد ما ؛ ودخل كثير من هؤلاء في الإسلام ؛ لأنه أبيض الوجه ، ولا لأنه أكمل للإنسان سعادته بما منحه من استقلال الإرادة ، واستقلال الفكر والرأى ، وقد كان حرهما زمناً طويلاً ؛ بل ليكيدوا له كيداً ، انتقاماً لدولهم الدائلة ، وأديانهم الزائلة ، ففسدوا فيه من الأساطير والأحاديث المفتراة . وبما أرادوا به تشويهه ، ما لعله يفتح السبل لأقوالهم فتنفذ إلى العقول .

ووردت في القرآن الكريم والسنة الشريفة آى وأحاديث ، يورثهم ظاهرها غير مفسرها به السلف الصالح ، فأخذ ذوو الأغراض والأهواء يتمسكون بظاهرها ، ويجادلون فيها ليد كوا نار الفتنة التي يعملون لها جاهدين ، لعلهم يطفئون النار التي تاجج في صدورهم ، وتأكل قلوبهم .

وانتشر القصاص في المدن الإسلامية بالمجالس والمساجد منذ فجر الإسلام . ومنهم من كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو صابئياً . وتناولوا الكلام في بعض حوادث وقتهم ، ومعرفة حكمها من الدين ، ولم يتورع أكثرهم عن ذكر الخرافات ، وسوق الأساطير التي تكسب قصصهم روعة وقبولاً ، ففتح بذلك باب دخل منه على الحديث الشريف كذب ، واسودَّ به وجه التاريخ ؛ لما اندس فيه من حوادث زائفة ، كان لها أثر سيئ في عقيدة المسلمين .

وشىء آخر يضاف إلى ما سبق ، هو الخوض في الغيبات التي كانت وما زالت مزائق للباحثين ، مع أن العقل الإنساني لن يستطيع أن يصل إلى كنهها بالغاً ما بلغ من الحصافة والنشاط .

هذه العوامل - التي ذكرنا وغيرها مما لم نذكر اختصاراً - هيأت العقول للجدل

والكلام فى المسائل الدينية والسياسية ، فارت ربيع الخلاف لاختلاف وجهات النظر وتباين الأغراض والمراى ، وتشعب الآراء فى الحوادث إبان الصدر الاول ، وتمخضت عن نشوء فرق إسلامية مختلفة ، خاضت ميادين الكلام ، وأذكت ناره : ففرقة إسلامية تجادل أخرى إسلامية ، وفرق إسلامية تجادل الدهريين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن قذفوا الإسلام بشبههم ، وغضوا من جلاله كيدا ، وما زالت هذه الفرق تنمو ويشق بعضها من بعض على الأيام للخلاف الذى يقع بينها حتى كثرت ، وأغرق بعضها إغراقا ضل به سواء السبيل .

— ٣ —

بعض الفرق الإسلامية المشهورة :

ومن أشهر الفرق الإسلامية القدريّة الذين يقولون : « لا قدر والامر أنف ، ومجمل ما يذهبون اليه :

أولا : إنكار قدر الله تعالى الذى صرح به الآى الكريمة ، وجاءت به الأحاديث الشريفة ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : « لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله تعالى يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه ، فيكتب أجله ورزقه وعمله . وشقى أو سعيد ، (١)

ثانيا : إن الله تعالى غير خالق لا كساب الناس ، وليس له (عز وجل) فيها صنع ولا تقدير ، وأن الإنسان حر الإرادة ، وله قدرة على كسب أفعاله ، وهو على خيرها يثاب ، وعلى شرها يعاقب .

ثالثا : نفي صفات الله : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، التى وردت بها الآى الكريمة ، مستندين فى ذلك النفي إلى أن اتصافه تعالى بهذه الصفات يدل على شبهه بالمخلوقين ، وهو مستحيل عليه .

رابعا : خلق القرآن نتيجة لنفى صفة الكلام عنه تعالى .

ويروى مؤرخو الفرق : أن أول من أنكر القدر وقال بما بنى عليه ، معبد

ابن خالد الجهني^(١). أخذه عن رجل كان نصرانياً^(٢) أو مجوسياً^(٣) وأسلم يقال له سيسويه^(٤) كان يسكن البصرة، وعن الرجل عينه أخذ غيلان الدمشقي الذي كان أبوه مولى لعثمان بن عفان، وعن هذين - وكانا خطيين مُقَوَّهين - أخذ الناس، فسأل سيل القول بالقدر على المعنى السابق في العراق والشام. فأما معبد فقتله الحجاج صبراً أو آخر سنة ٨٣ هـ لخروجه مع ابن الأشعث^(٥) وأما غيلان فقتله هشام بن عبد الملك في خلافته ١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ لأسرافه في القول بالقدر، وتسميعه بحكومة بني أمية، ولم يكن حظ أولياء معبد وغيلان بأحسن من حظهما، ولا سيما في خلافة هشام.

الجبرية أو الجبرية :

ومن الفرق الإسلامية التي كانت من مولود العوامل السابقة : الجبرية أو الجهمية، أو المعطلة، أو القدرية أيضاً، ومجمل ماذهب إليه هؤلاء الجبريون : أولاً : إن الإنسان لا قدرة له على شيء ولا اختيار ولا كسب له، وإنما هو مجبور على أفعال قدرها الله تعالى عليه ولا بد أن تصدر منه.

ثانياً : إن الله تعالى يخلق الأفعال في الإنسان خلقاً فلا تنسب إليه إلا مجازاً،

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥، وشرح العيون لابن نباتة ص ٥١ هامش
الغيث المسجم

(٢) شرح العيون الصفحة عنها، والإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٣، ٤) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ندبه الحجاج لقتال رتييل، ملك الترك، فلما غزا سنة وغنم مغنم كثيرة رأى أن يتدرج في الفتح لئلا يهلك جنوده، فلم يصادف ما رأى هوى في نفس الحجاج، وأمره بالإيمان في بلاد العدو، فمرض عبد الرحمن الأمر على معاونيه وجنوده، فأرأوا رأيه، وخلعوا طاعة الحجاج وعبد الملك بن مروان، ثم زحف ابن الأشعث بجنوده نحو العراق لقتال الحجاج، فلما التقى الجمعان تغلب الحجاج على خصمه وهزمه وجنوده وجمهرة خطب العرب للاستاذ أحمد زكي صفوت،

كما تنسب إلى الجراد، فكما يقال: طلعت الشمس مثلاً بدون أن تكون فاعلة للطلوع، يقال: سافر فلان أو حارب، بدون أن يكون فاعلاً حقيقياً للسفر أو الحرب. ثالثاً: نفوا صفات الله تعالى التى وردت بها الآى الكريمة، كما فعل القدرية، فرأوا من تشبيهه تعالى بال مخلوق، وقالوا: يجب ألا يؤخذ ماورد من الآيات على ظاهره بل لا بد من تأويله.

وزعيم هذه الطائفة وأسبق الناس قولاً بالجبر: جهم بن صفوان الخراسانى، مولى بنى راسب، وكان خطيباً خلاباً ذا بيان وفصاحة، ظهرت بدعته فى ترمذ^(١) وتبعه خلق كثير، ثم قتله سالم بن أحوز المازنى بمرور^(٢) سنة ١٢٨ هـ لخروجه مع الحارث بن سريج على نصر بن سيار وإلى خراسان من قبل مروان بن محمد، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق^(٣).

— ٤ —

منى فتمس الناس بالقدر ؟

تكلم الناس فى القدر فى حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما بينا آنفاً من دخول كثيرين من أهل الأديان والنحل فى الإسلام، وتسرب طائفة من آرائهم إلى المسلمين، ولما ورد فى القرآن الكريم من آى يؤهم بعضها أن الإنسان مجبور على أعماله لآخرية له ولا إرادة، كقوله تعالى: « والله خلقكم وما تعملون، وقوله تعالى: « قل كل من عند الله، وقوله عز وجل: « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون، ولما

(١) مدينة على نهر جيحون من الجانب الشرقى، وهى بكسر التاء والميم، وفتح التاء وكسر الميم، وبضم التاء والميم، وفيها لغات أخرى (معجم البلدان لياقوت، والقاموس المحيط).

(٢) قاعدة بلاد خراسان قديماً على نهر مرغاب، فتحها الاحنف بن قيس فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفيها بويغ بالخلافة المامون العباسى سنة ١٩٨ هـ.

(٣) أخذ جهم القول الذى نسب إليه عن الجعد بن درهم الآتى ذكره.

ورد من آي أخرى يوم ظاهرها أن للإنسان اختياراً وكسباً كقوله تعالى :
 « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، وقوله تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن
 شاء فليكفر ، ولذلك عرض (صلى الله عليه وسلم) للقدر وقال : « إذا ذكر القدر
 فأمسكوا ، وقال : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر ... » إلى آخر الحديث السابق
 ولم ينكر القدر في زمانه (صلى الله عليه وسلم) منكر ، وإنما تنطع الناس في فهمه
 وجعلوا ما يرتكبون من آثام عليه قائلين قدر الله وقضاؤه ساقانا ، ولذلك
 قال عليه السلام : « القدرية مجوس هذه الأمة ، وعنى بذلك الذين يتعللون
 بالقدر ويحملون ما يقارفون من موبق عليه ، وكذلك لم ينكر القدر في عهد
 الخلفاء الراشدين منكر ^(١) وإنما تعلل الناس به وأكثروا من الكلام فيه ، فدافعهم
 عمر بصرامته . وعلى بيلاغته ، ورد عليهم جمع من الصحابة : كعبد الله بن عباس ،
 وعبد الله بن عمر ، والحسن بن علي ، ووائل بن الأسقع ^(٢) . وما زالت نار الجدل
 تستعر بين بقية الصحابة والتابعين . وبين هؤلاء وأشباههم ، إلى أن ظهر منكر
 القدر والقائلون بالجبر الذين ألمعنا اليهم سابقا في خلافة بني أمية ، فناظرهم بعض
 الخلفاء والعلماء : كعمر بن عبد العزيز ، والأوزاعي ^(٣) ، وميمون بن مهران ^(٤)
 وأخذهم بعض الخلفاء والأمراء بذنوبهم كهشام بن عبد الملك والحجاج وسالم
 ابن أحوز ؛ وكان قتل معظم من قتل من القدرية والجبرية قتلا سياسيا لأنهم كما
 شذوا في المقالات الدينية شذوا في الآراء السياسية ، وبعد هشام كان من خلفاء
 بني أمية الضعيف المتهافت على اللذات ومنهم من يرى القدر ، كيزيد بن الوليد
 ابن عبد الملك بن مروان الملقب بالناقص الذي كان من دعائه عمرو بن عبيد
 الآتي ذكره ، وكروان بن محمد الملقب بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم أستاذه

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٢) المصدر عينه

(٣) سرح العيون ص ٥٢ هامش الفيت المسجم للصفدي

(٤) كان من عمال عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ ثم عمل لهشام ابن

عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ

في القول بالقدر^(١) فتحركت الألسنة بانكار القدر، وشاع في الناس حتى أصبح أصلاً من أصول مذهب المعتزلة الذي ذر قرنه في أواخر هذا العصر أيضاً وهضم مذهب القدريّة أو كانه، وناهض مذهب الجبرية في أطراف الأرض ويستنبط مما تقدم نتائج: الأولى: إن منكرى القدر والقائلين بالجبر أو المعطلة، وهم جهم وأتباعه، ظهوروا في عصر بني أمية.

الثانية: إن حركتهم نوهضت بالمناظرة ثم بقتل زعمائهم قتلا سيه سوء المقالة وسوء الرأي السياسي، وإن معظم دعاة المذهبين من أولاد الموالى والسبايا، وهذا يؤيد ما ذكرنا آنفاً من أن مذهب السبيل للقول في القدر تسرب آراء الداخلين في الإسلام إلى أذهان المسلمين.

الثالثة: إن سيل القدر سال في العراق وهي أصله، ثم سال في الشام وسال قليل منه في الحجاز^(٢)، وإن مذهب الجبرية نشأ في الكوفة بالعراق، ثم جرى

(١) في صفحة ٥٥ من سرح العيون لابن نباتة هامش الغيث المسجّم ما يأتي: (أما الجعد فهو ابن درهم مولى بني الحكم، وكان يسكن دمشق ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فنسب إليه وقيل مروان الجعدي، والجعد أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق، ثم طلب فهرب، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي نسب إليه الجهمية، وقيل إن الجعد أخذ ذلك عن أبان بن سميان، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودي، وكان طالوت زنديقا يقول بخلق القرآن، وهو أول من صنف في الزندقة، فأظهر الجعد مصنفاته، فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالكوفة. قال ابن نباتة: قال خالد بعد أن صلى في آخر خطبته: (انصرفوا وضحوا بضحاياكم يقبل الله منا ومنكم، فأني أريد اليوم أن أضحي بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليماً، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً. تعالى الله عما يقول علواً كبيراً، ثم نزل وحز رأسه بالسكين بيده) وكان خالد بن عبد الله عاملاً لهشام بن عبد الملك على العراقيين بعد ابن هبيرة

(٢) يقول ابن تيمية: ويقال أول ما حدث — يعني القدر — في الحجاز لما احترقت الكعبة، فقال رجل: احترقت بقدر الله تعالى، فقال آخر: لم يقدر الله هذا
«الإيمان» صفحة ١٥٦

نهره في خراسان بانتقال جهنم إليها بعد أن وقفه الجمد على أصول المذهب في الكوفة .
الرابعة : إن مذهبي القدرية والجبرية التقيا في القول بنفي صفات الله وفي القول بخلق القرآن .

— ٥ —

المعتزلة :

ومن أعظم الفرق الإسلامية التي ورثت عقلية المسلمين أثراً واضحاً ، المعتزلة أو أهل العدل والتوحيد ، ويسمون القدرية لقولهم في القدر مقال أصحاب معبد ، والجبرية لأنهم وافقوا أصحاب جهنم في القول بنفي صفات الله تعالى وخلق القرآن ، وبجمل ما ذهب إليه المعتزلة أصول خمسة تعتبر أصل مذهبهم ، ثم استقل كثير من زعمائهم بتعاليم عرفها وعزيت إليه ، أما التعاليم الأولى فهي :
أولاً : التوحيد ، ومعناه إنكار أن يكون لله تعالى صفات قديمة : كالعلم ، والقدرة . والحياة بحجة أنها لو كانت قديمة للزم تعدد القديم ، وإنكار أن يكون لله تعالى صفات السمع والبصر والكلام لأنها من عوارض الأجسام .

ثانياً : القول بالمنزلة بين المنزلتين في أمر مرتكب الكبيرة ؛ أي أنه ليس كافراً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير فيه ؛ وليس مؤمناً ، لأن الإيمان خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً . وهي لم تجتمع لمرتكب الكبيرة بارتكابها ، وإذا لم يكن مؤمناً ولا كافراً فهو بينهما ، أي فاسق مستحق للنار بما فسق .

ثالثاً : العدل أو القول بـ إنكار القدر ، ومعناه أن الله تعالى لا يحب الفساد ، ولا يريد الشر ، وأن أفعال الإنسان من خير أو شر من كسبه هو لا من صنع الله وتقديره ، ولذلك يعاقب الكاسب على أفعال الشر ، ويثاب على أفعال الخير ، ولما كان الله تعالى لا يريد بالإنسان شراً كان عادلاً .

رابعاً : الوعد والوعيد ، ومعناها أن الله تعالى لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، فإذا مات قبلها فهو مخلد في النار ، وأنه عز وجل يثيب المؤمن إذا فارق الدنيا على طاعته واستقامته

خامساً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعناها أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً على سائر المؤمنين، كل على حسب استطاعته ولو أدى ذلك إلى سَلِّ السيف من أغمارها. وأشهر رجال هذه الفرق بل ذوابتها، واصل ابن عطاء المولود بمدينة الرسول (صلّى الله عليه وسلم) سنة ٨٠ هـ، وكان يختلف إلى مجلس الحسن البصري مقرر مذهب الجماعة في مسجد البصرة وبأخذ عنه، ثم خالفه في أمر مرتكب الكبيرة، وقد كان الخوارج^(١) يرون أنه كافر، والجماعة يرون أنه مؤمن فاسق، وصرح واصل في مجلس الحسن بأنه بَيِّنَ بين كما تقدم، فتناه الحسن عن مجلسه، أو هو الذي اعتزل مجلس الحسن لما رأى من الكراهة في وجهه، واتخذ له مكاناً آخر في المسجد مع فريق من زملائه الآخذين عن الحسن أولاً؛ فسموا المعتزلة لذلك، ولأسباب أخرى يذكرها مؤرخو الفرق، ثم أطلق هذا الاسم على كل من سار في محيط الأصول الخمسة، وعلى كل من وافقهم في أصل وبني عليه على حسب اجتهاده فروعاً أو أضاف إليه أصولاً من عنده، وسميت الفرق المشتقة بأسماء زعمائها ونسبت إليهم^(٢)

وتبع واصلًا في مذهبه عمرو بن عبيد الذي ألعنا في كلامنا آنفاً إلى أنه كان من دعاة يزيد الناقص، وكان واصل مشهوراً بالفضل والبيان، وعمرو مشهوراً بالزهد والورع، أحبه الخليفة أبو جعفر المنصور وعرض عليه الجليل من

(١) الخوارج أو الشراة هم الذين ألحوا على علي (عليه السلام) في حرب صفين على نهر الفرات شرق حلب، أن يخضع لما طلبه معاوية من وقف القتال بعد أن رفع رجاله المصاحف على رموس الرماح، فلما اجتمع الحكان وغدز عمرو بن العاص بأبي موسى الأشعري، عاد هؤلاء الذين أرغموه أولاً على الرضا بوقف الحرب والتحكيم يطلبون إليه أن يستغفر ذنبه لأنه حكم الرجال، وتوعده إن لم يتب أن يخرجوا عليه، فلما أبى حققوا ما توعدها، فسموا الخوارج لذلك ولأسباب أخرى ادعواها: اقرأ تاريخهم وأدبهم في كتب الفرق والتاريخ

(٢) كالمذيلية بعد الواسلية، والكالنظامية، والمعمرية، والبشرية، والثامية، والمحاظية، والمخاطية، والجباية، وغيرها.

الاعمال فرغب عنها زهداً ، ورثاه لما مات بآيات تدل على عظمة المرتضى ووفاء الرأى .
 وكلا الرجلين ، واصل وعمر و من أبناء الموالى ، ولد الأول بمدينة رسول الله
 سنة ٨٠ هـ وتوفى فى مستهل الثلث الثانى من المائة الثانية ، وتوفى الثانى سنة ١٤٤ هـ ،
 وجده رباب كان مولى لبنى تميم ، وكان لكليهما تلاميذ وأولياء مقدمون نهجوا
 نهجهما ، وآخرون زادوا عليهما بما درسوا من فلسفة اليونان ومنطقهم بعد ترجمة
 الكتب فى فجر العصر العباسى الأول ، ليفلوا الحديد بالحديد ، إذ كان قد دخل فى
 الإسلام أناس لم يعرفوا منه غير اسمه ، من أبناء النصارى واليهود والمجوس
 والدهريين ، درسوا الفلسفة والمنطق ، وأثاروا فى الإسلام جدلاً حول مسائل
 كانت تثار فى أديانهم ، وكان هناك غيرهم ممن لم يسلبوا أكثر منهم إذاعة لمقالات
 السوء ، وكان من الملاحدة والزنادقة الكثيرين الذين يظهرون الإسلام خوفاً
 واستدراجاً للرزق ويطنون الكيد له والزراية به - كطبيع بن إياس ، وحماد
 الراوية . وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الله بن المقفع - من يقول بالتناسخ
 ويترجم كتباً فى الإلحاد ، وكان هناك الجبرية أهل التعطيل ، وأهل الحديث
 الذين يجدون على المعتزلة ، وينقضون أسس مذهبهم ، وكان هنالك غير هؤلاء
 من الحاقدين على المعتزلة والمخالفين استندوا إلى أسباب جعلوها ذرائع للطعن
 عليهم : كاشتغالهم بالفلسفة ، وكاحتشامهم بالخلفاء : المأمون ، والمعتصم ، والواثق ؛
 وكسلهم طريق العنف فى معاملة خصومهم ، وإذاقتهم صنوف العذاب (١)

- ٦ -

قاوم المعتزلة هؤلاء جميعاً ، وتأثروا أهل البدع فى أطراف الأرض ، وكتبوا
 المقالات المستفيضة ، وزانوا المجالس بالمحاضرات ، وعمرُوا المساجد بالمناظرات ،
 وصادف تحديهم الملاحدة والزنادقة هوى فى نفس المهدي وابنه موسى الهادى
 اللذين نكلا بالزنادقة ومن نزع إليهم ، وصادف أن حبا الخلفاء الثلاثة الذين
 ذكرنا أنفاً المعتزلة بعطفهم ، وفتحوا لهم فى مجالسهم ، ومكنوهم من خصومهم

(١) راجع صفحات ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦

من محاضرات الدولة العباسية ، وللخضرى بك ،

فظهرت بذلك كله أول نواة من أنوار علم الكلام الذى يعتبر ثمرة من ثمار جدلهم ، وتجردوا لوضع مسائله وتوضيحها ، ثم أخذ كل فريق من المشتغلين بالنقاش فيه ينحو به منحى ميوله واعتقاده ، إلى أن أصبح ثابت البنان ، راسخ الدعائم ، على يدى زعيم أهل السنة والجماعة أبى الحسن الأشعرى بعد أن جرد نفسه من ثوب الاعتزال كما سيجى .

ومن أشهر علماء المعتزلة غير واصل وعمرو بن عبيد ، عثمان بن خالد الطويل ، أستاذ أبى الهذيل العلاف . وحفص بن سالم ، والحسن بن ذكوان ، وخالد بن صفوان ، وإبراهيم المدنى ، ومن هؤلاء من عاش فى الدولتين الأموية والعباسية ثم أبو الهذيل العلاف ، وأبو بكر الأصم ، ومعر بن عباد ، وإبراهيم بن سيار النظام ، والجاحظ ، وأبو يعقوب الشحام ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة بن أشرس ومعظم هؤلاء درسوا الفلسفة والمنطق فى العصر العباسى الأول ، وكان لكثير منهم تعاليم خاصة وتلاميذ وأولياء .

ومن مشهورهم أيضاً موسى بن عمران ، وأحمد بن حائط ، وأحمد بن أيوب بن مانوس ، وعيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى المزداد ، وأبو الحسين الحياط ، وأحمد بن أبى دؤاد القاضى ، وأبو على الجبائى شيخ الأشعرى وقد كان المعتزلة مجدودين فى عهد خلفاء بنى العباس الأوالى إلى زمن جعفر المتوكل الذى رفع المحنة

— ٧ —

أبو شاعرة :

ومن الفرق الإسلامية العظيمة التى رعت علم الكلام فى مهده وأعلت نياه وفصلت مسائله : الأشاعرة أو أهل السنة والجماعة ، وزعيمهم وواضع مذهبهم شيخ المتكلمين وذو آبتهم غير منازع أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ والمتوفى سنة ٣٢٤ هـ . وكان أول أمره تليذاً لأبى على الجبائى من شيوخ المعتزلة المتوفى سنة ٣٠٣ هـ لأنه ختنه ، ثم خلع عن

نفسه ثوب الاعتزال بعد أن هداه البحث في السنة ومذاهب المتكلمين إلى أن يسلك طريقاً وسطاً معقولاً بين المذاهب المختلفة التي كثر في بعضها التنطع؛ وألف الكتب في الرد على المعتزلة الذين يتفون صفات الله ، وعلى الجهمية المعطلين وشركاء المعتزلة في نفي الصفات ، وعلى مشبهة الذات الذين أمعنوا في التشبيه حتى اعتقدوا العين واليد ، ومشبهة الصفات الذين أسرقوا فأثبتوا الجهة والصوت — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — وعلى غير هؤلاء من أهل البدع والضلالات التي كانت فاشية في عصره ؛ ونصب له هؤلاء جميعاً ولا سيما المعتزلة — لأنه في الأصل منهم — فقمعهم بالحجة وقطعهم بالبرهان وأخاق جده مذهبهم فتيحه جماعة منهم ، وقرأ كتبه المحدثون والفقهاء من أهل السنة وأخذوا بما فيها واعتبروه إماماً حتى نسب مذهبهم إليه ، وتبعه سواهم ، وما زال مذهب الأشعري يغزو المذاهب الأخرى فيزوها مذهباً إثر مذهب حتى ساد وطبق معظم الآفاق ، وعليه جبهة المسلمين إلى هذا الوقت .

ومن أشهر رجال هذا المذهب القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، والأستاذ أبو بكر بن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وأبو الحسن البصري الأشعري النعيمي الأديب المتوفى سنة ٤٢٣ هـ ، وإمام الحرمين أبو المعالي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، وأبو القاسم القشيري المتكلم المتصوف السني المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، والشيخ عبد القاهر الجرجاني المتكلم السني النحوي الأديب المتوفى سنة ٤٧٤ هـ ، وأبو الفتح الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، والغزالي أبو حامد المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، والفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وقبل أولئك جميعاً القفال الشاشي الكبير الأديب المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ، راجع طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي .

— ٨ —

علم الكلام ماهو ؟ :

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين عن مذهب السلف وأهل السنة في الاعتقاد^(١) ، ويسمى علم التوحيد

لأن من أمهات مسائله إثبات الوحدة لله تعالى في ذاته ، وفعله ، وخلقه ألا كوان ؛ ويتضمن أيضا البحث عن وجود الله تعالى وما يجب له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه ، وما يجب للرسل عليهم السلام من صفات ، وما يجوز أن يوصفوا به وما يجب أن ينفي عنهم ، والغرض من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله تصديقا تطمئن به النفس ، استنادا إلى الدليل على وفق ما أرشد إليه الكتاب الكريم الذي أمرنا باستخدام النظر الفاحص ، واستخدام العقل فيما بين ظهرانينا من ظواهر الكون .

وكما يسمى هذا العلم علم الكلام وعلم التوحيد ، يسمى الفقه الأكبر^(١) وأصول الدين ، لأن الأصول - وهي معرفة الله تعالى بوحديته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم ، ومعرفة كل مسألة يتعين فيها الحق بين المتخاصمين - موضوع علم الكلام عند المتكلمين ، وقد عده الفارابي من العلوم العملية^(٢) وعده ابن سينا من العلوم النظرية^(٣) وإنما سمي علم الكلام لأن أشهر مسألة استحر فيها الجدل بين العلماء الأوالي كانت مسألة كلام الله تعالى : أحادث هو أم قديم ؟ أو لأن منبى هذا العلم الدليل العقلي الذي يظهر أثره في كلام كل متكلم ، أو لأنه في الكشف عن طرق الاستدلال على أصول الدين يشبه المنطق في كشفه عن طرق الحجة .

(١) سماء بذلك أبو حنيفة

(٢) إحصاء العلوم للفارابي

(٣) منطق المشرقيين لابن سينا . ويفرقون بين العلوم العملية والنظرية بأن الأولى

لا ترمى إلى حصول الاعتقاد اليقيني بالموجودات ، وإنما المقصود منها الحصول على أمر صحيح في شأن يحدث بكسب الإنسان ليفيد منه الخير ؛ وأن الثانية ترمى إلى الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان ، والغرض منها حصول رأى فقط .

- ٩ -

أثر علم الكلام في الأدب بمعنى العام والخاص :

إذا استقرينا طبقات المتكلمين على اختلاف مذاهبهم وجدنا جمهورهم من فحول البلاغة وأساطين الأدب وملوك الكلام، لأن صناعتهم صناعة جدل وحاجة؛ قوامها قوة البيان، وأداتها ذلاقة اللسان وإقامة البرهان؛ ووجدنا أكثرهم بعد ترجمة الكتب في أوائل العصر العباسي درسوا الفلسفة والمنطق ليجمعوا إلى الثقافة الإسلامية البحث ثقافة جديدة اقتضتها الضرورة، إذ كان معظم خصوم الإسلام على نحو ما وصفنا في عدة مواضع سابقة. ولذلك لم يكن غريباً أن نرى القاضي أبا بكر الباقلاني المتكلم السني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ يفترض فيمن يقرأ كتابه «إعجاز القرآن»، أن يكون بالأدب عارفاً وبمسائله محيطاً، فيقول: «ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما مرنا ببيانهِ وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً، وعن وجه اللسان غافلاً، لأن ذلك مما لا سبيل إليه إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه بما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه الخ».

(١) أثر المتكلمين في الأدب عن معنى البلاغة والأدب :

قال الجاحظ في البيان والتبيين صفحة ٦٣ جزء أول طبع مطبعة الفتوح: «قيل لعمر بن عبيد: ما البلاغة؟ فقال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار؛ وما بصر بك مواقع رشدك وعواقب غيك». قال السائل: ليس هذا أريد! قال عمرو: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال السائل: ليس هذا أريد. قال عمرو بعد حوار: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن الإفهام: قال السائل: نعم. قال عمرو: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين، وتخفيف المثونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالالفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة

على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب . وقد شرح عمرو في هذا الجواب ما كان يعنى به المتكلمون من تحبير اللفظ وحسن إفهام ، ومن بحث طرق ذلك ، ولم تكن هذه الطرق إلا البلاغة وكما يحدثنا الجاحظ عن شرح ابن عبيد لمعنى البلاغة ، يحدثنا في صفحة ٧٥ وما بعدها من الجزء عنه فيقول : إن بشر بن المعتمر أحد علماء المعتزلة ، مر بإبراهيم ابن جبلة السكوني الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليفيد أو ليكون رجلاً من النظارة ، ولكن بشراً قال مخاطباً الفتيان : « اضربوا عما قال صفحاً ، واطوروا عنه كشحاً ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتسميحه وكان ذلك أول الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الاستماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع الخ ،

قال الجاحظ : « قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لي : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان . » اقرأ الصحيفة في صفحات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ من البيان ، ومنها تعرف أن بشراً كان إلى ناحيته الكلامية أديباً عارفاً أسرار البلاغة ملماً بما يجب على الأديب من تحبير اللفظ ، وتقريب المعنى من الأفهام ، ومن جعل الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، ومن اختيار الأوقات المستحبة إلى أشباه ذلك من القواعد والأصول التي لا يدركها إلا حذاق الأدب .

ويحدثنا الجاحظ أيضاً في صفحة ٦١ من الجزء عنه واصفاً أدب ثمامة بن أشرس المتكلم المعتزلي تعليقاً على وصف ثمامة لأدب جعفر بن يحيى البرمكي فيقول : « وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ، كان ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره . وما علمت أنه كان في زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف - ما كان بلغه ، وكان لفظه في وزن

إشارته ، ومعناه في طَبْعَةِ لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال بعض الكتاب : معاني ثمانية الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه كما وصف الحزبي شعر نفسه في مدح أبي دلف حيث يقول :

ولى كـلم وفـيك معقوله إزاء القلوب كركب وقوف ،

أما وصف ثمانية لبلاغة جعفر فقوله في صفحة ٥٨ من الجزء عينه : « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ؛ قد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة ، لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ،

هذه الكلمات الأربع التي أوردنا لعمر بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وثمانية ابن أشرس . والجاحظ ؛ تصور لك مبلغ إلمامهم بقواعد الأدب وأصوله ، وبأن البليغ عندهم كما هو عند الأصمعي ، من طبق المفصل وأغناك عن المفسر ،

(٢) آثار المتكلمين في أصل اللغات

يحدثنا الإمام ابن تيمية المتوفى في الربع الأول من القرن السابع في كتابه « الإيمان ، صفحة ٣٦ طبع مطبعة السعادة عن اللغات ، وهل هي توقيفية أو اصطلاحية ، فيثبت أن الكلام في هذه المسألة أثاره المتكلمون قبل كل إنسان . وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبي هاشم بن الجبائي ، ثم يقول : « فتنازع أبو الحسن الأشعري . وأبو هاشم الجبائي في مبدأ اللغات ، فقال أبو هاشم : هي اصطلاحية ، وقال الأشعري : هي توقيفية ، ثم خاض الناس بعدهما في هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفي وبعضها اصطلاحى ، وقال فريق رابع بالوقف ،

وهذا يدل على أن المتكلمين عالجوا الأدب من أساسه الأول ، فقد درج علماءه على أن يتناولوا بالبحث والتمحيص مسألة اللغات ونشأتها على نحو الحوار الذي كان بين الأشعري وابن الجبائي .

(٣) أثر المتكلمين فى علم البهرغ : المتكلمون واضعو هذا العلم :

جر الكلام فى إعجاز القرآن ومعنى الايمان والإسلام والإحسان بين المتكلمين من المعتزلة وأهل السنة وغيرهم إلى الكلام فى البلاغة ومعنى الحقيقة والمجاز وما يدلان عليه ، وتقسم الحقيقة إلى عرفية ولغوية وشرعية ، فكان المتكلمون بذلك أول الواضعين لعلم البلاغة ، وهذا ابن تيمية يتحدثنا فى كتابه الايمان صفحة ٣٤ وما بعدها : « فصل فى أن دلالة الايمان على الأعمال حقيقة لا مجاز ، فيقول : « فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى ، ولم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم : كمالك ، والثورى ، والأوزاعى ، وأبى حنيفة ، والشافعى ؛ بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو : كالخليل ، وسيبويه ، وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم . وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز القرآن ما يُعَبَّرُ به عن الآية ، ثم يقول بعد كلام قصير : « ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلماؤها وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان

من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين الخ »

وفى الحق أن ابن تيمية لم يلق القول على عواهنه وهو الثقة ، فإننا إذا عرضنا لواضعى هذا العلم ورافعى قواعده وجدناهم جميعاً من المتكلمين ، ومن بينهم عدد غير قليل ممن درسوا الفلسفة والمنطق ، وخططوا مسائل البلاغة بمسائلهما ؛ فالجاحظ وهو من رموس المتكلمين قد أشار إلى مسائل من علم المعانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ وضع ثلاثة عشر نوعاً من البديع فى كتابه نقد الشعر الذى سماه « نقد قدامة » ، والإمام عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ أول من خلاص مسائلها المبعثرة ووضع كتابه « دلائل الإعجاز » ، « وأسرار البلاغة » ، وهو فى الأول متكلم فيلسوف

يسوق الكلام على طريق أهل الجدل ، وفي الثاني أميل ما يكون إلى الأدب
الصرف لانصرافه عن الكلام في الإيجاز إلى اللهجة الأدبية البحتة التي تمثل في
سوق الشواهد الكثيرة من فصيح الشعر والنثر وبيان ما فيها من أنواع البلاغة
على النحو المعروف في دروس البلاغة الآن .

وأبو القاسم محمود الزمخشري المتكلم المعتزلي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ألف تفسيره
«الكشاف» ، وكشف في أثناء كلامه عن كثير من قواعد البلاغة ، وقال من
كلام في خطبة هذا الكتاب : « والواعظ وإن كان من الحسن البصري أو عظماء
والنحوى وإن كان أنحى من سيديوه ، واللغوى وإن علمك اللغات بقوة لحيته
لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطريق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ،
إلا رجل قد برع في علين مختصين بالقرآن : وهما علم المعاني ، وعلم البيان ،
وتمهّل في ارتيادهما آتونه وتعب في التنقير عنهما أزمته الخ ،

وأبو يعقوب السكاكي المتكلم المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ألف كتابه «مفتاح العلوم»
ومزج أساليبه بكثير من أساليب الفلسفة والمنطق لتمكنه منها .
وعن هؤلاء الأئمة الذين وضعوا علوم البلاغة ثم جردوا مسائلها ، أخذ من
جامعوا بعدهم ونحووا نحوه

(٤) أثر المتكلمين في لغة الأدب

انساب طائفة غير قليلة من مصطلحات المتكلمين في محيط الأدب العربي ، قد
يكون أثرى بها من جهة أنها دالة على معان مقصودة لهم لم يجدوا ما يؤيدها سواها ،
وقد يكون وجه الأدب أربد بها من جهة أخرى لأن معظمها دخیل على اللغة شق
طريقه إليها من الفلسفة والمنطق : كالكم ، والكيف ، والآن ، والمتى ، والأزل ،
والعرض ، والجوهر ، والحجة ، والبرهان ، والاعتقاد ، والحدوث ، والعدم ،
والقطع ، والقمع ، والكسب ، والاختيار ، والجبر ، والتعطيل ، والشك ، واليقين ،
والقضاء ، والقدر ، والعلة ، والمعلول ، والسبب ، والمسبب ، والأصول ، والفروع ،
والحق ، والباطل ، والغلبة ، والخذلان ، والواجب ، والجائز ، والممكن ، والمستحيل ،
والقدم ، والبقاء ، إلى أشباه ذلك مما يجده في نثرهم ونظمهم ، كقول الجاحظ في رسالته

«القيان» : أما بعد فإنه ليس كل صامت عن حجته مُبطلاً فى اعتقاده ، ولا كل ناطق بها لا برهان له محققاً فى انتحاله ، والحاكمُ العادلُ من لم يجعل بفصل القضاء دون استقصاء حجج الخصماء ، ودون أن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضى الخصمين فى بيان ما اختصما فيه حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه ... وقد كنا نمسكين عن القول بمحجتنا فيما تضمنه كتابنا هذا ، اقتصاراً على أن الحق متكفل بظهوره ، مُبين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره ، إذ كان إنما يستدل بباطن على ظاهر ، وعلى الجوهر بالعرض ، «إن الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها ، والأعجاز لاحقة بصدورها ، والموالى تبع لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكله ، ومنفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض : كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة ؛ وكالحب علة الزرع والزرع علة الحب ؛ والدجاجة علة البيضة ، والبيضة علة الدجاجة الخ ، وكقوله فى أول رسالته «ذم أخلاق الكتاب ، بعد الديباجة :

«ومتى وقع الوصف من القائل تقصياً ، والنعت من الواصف تأتقاً ، قل شهادته ، وكثر خصماؤه ، لأن أغلظ المحن ماعرض على المشهور فأزاله ، وتصفحه المعقول فأحاله ، وأضعف العلل ما التمس بعد المعلول ،

وكقول النظام يمدحه - ويدعى الجاحظ عمراً ، ويكنى بأبى عثمان :

حي لعمر و جوهر ثابت وجبه لي عرض زائل

به جهاتي الست مشغولة وهو إلى غيرى بها مائل

وكقول أبى القاسم القشيري المتكلم السنى الصوفى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

يا من تقاصر شكرى عن أبياده وكلّ كلّ لسانى عن معاليه

ووجوده لم يزل فرداً بلا شبه علا عن الوقت ماضيه وآتيه

لا دهر يُخلّقه ، لا قهر يلحقه لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه

لا عدّ يجمعه ، لا ضدّ يمنعه لا حدّ يقطعُه ، لا قطر يحويه

لا كون يحضرُه ، لا عين تبصرُه وليس فى الوهم معلوم يضاهيه

جلاله أزل لا زوال له وملكه دائم لا شئ يُفنيه

(٥) أثر المنكلمين في المؤلفات العلمية :

وكذلك شاعت في المؤلفات العلمية التي وضعها المتكلمون طائفة من ألفاظهم الاصطلاحية ، وأكثر ما كان ذلك في مقدمات هذه الكتب : كقول الزمخشري في أول كتابه ، الكشف ، : « فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم ، أنشأ كتاباً ساطعاً تبياناً ، قاطعاً برهانه ، وحياً ناطقاً ببيانات وحجج . قرآنأ عربياً غير ذى عوج ، مفتاحاً للنافع الدينية والدنيوية ، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان . أغم به من طول بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تحدى من مصافع الخطباء . » وكقول الجرجاني في مقدمة كتابه « أسرار البلاغة ، وقد مزج كلامه مزجاً صريحاً باصطلاحات المناطق والفلاسفة : « فلو لا الكلام لم تكن لتعدى فوائدُ العلم عالمه ، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزهير العقل كائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية في موجودها وفانيتها ؛ نعم ، ولو وقع الحيُّ الحساسُ في مرتبة الجداد ، ولكن الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعاني مسجونة في مواضعها ، ولصارت القرائع عن تصرفها معقولة ، والأذهانُ عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان . » وكقوله وقد أمعن في تقسيم أبواب الفن ومضى يشرح المسائل في باب التشبيه ويسرف في الإلزام بألفاظ أهل المنطق والفلسفة : « إن قال قائل إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزلة الوجود ليس من حديث التشبيه في شيء ، لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معاني ذلك ، أو حكماً من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، في أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء ؛ وإذا قلت في الرجل القليل المعاني : هو معدوم ، أو هو والعدم سواء ؛ فلست تأخذ له شبهاً من شيء . ولكنك تنفيه وتبطل وجوده ؛ كما أنك إذا قلت : ليس هو بشيء ، أو ليس برجل كان كذلك ،

(٦) أثر المتكلمين في النقد :

وقد كان للمتكلمين أثر كبير ، خالده في نقد الكلام والكشف عن محاسنه ومساوته حين عرضوا للكلام في إيجاز القرآن وأفوا فيه الكتب . وحين عرضوا البلاغة ودونوها ، وإن حملت كتبهم أسماء أخرى غير النقد ؛ اقرأ للإمام أبي بكر الباقلاني في كتابه ، إيجاز القرآن ، تعليقه على قول امرئ القيس :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسميا لما نسجتها من جنوب وشمال
تر أنه إلى إمامته الكلامية إمام في الأدب والنقد ، يعرف كيف يميز الخبيث من الطيب ويرك أسرار البلاغة في الكلام إدراكا تتقطع دونه أنفاس البلغاء : قال في صفحة ٧٥ : الذين يتعصبون له (امرئ القيس) أو يدعون محاسن الشعر ، يقولون : هذا من البديع ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب . وتوجع واسترجع في بيت ، ونحو ذلك . وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت ، أو غفلتنا عن مواضع الصناعات إن وجدت ؛ تأمل أرشدك الله ، وانظر هداك الله : أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا ، ولا تقدم به صانعا ، وفي لفظه ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكي لذكر الحبيب ، وذكره لا يقتضى بكاء الخليلي ؛ وإنما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا ، على أن يبكي لبكائه ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فاما أن يبكي على حبيب صديقه وعشيق رفيقه ، فأمر محال ؛ فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا ، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغاؤل عليه والتواجد معه فيه . ثم في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأما كن : من الدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة ، وسقط اللوى ؛ وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا ؛ وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من العي . ثم أن قوله - لم يعف رسميا - ذكر الاصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن

على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا ، وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفا الرسوم إلا جدة عهد وشدة وجد الخ ، وقال في صفحة ٧٦ تعليقا على قوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا تضرع المسك منهما نسيم الصبأ يأتي بريئا القرنفل
، أنت لاتشك في أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ؛ وأما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله : تضرع المسك منهما ؛ ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال ، فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير . ثم فيه خلل آخر ، لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص ؛ وقوله : نسيم الصبا . في تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله ،

وقد لبس الباقلاني في نقده ثوب الأديب الدخال ، ولم يستخدم من ألفاظ المتكلمين سوى : أنت لاتشك ، مثلا ، ، وأنت تعرف ، ، ، وهداك الله وأرشدك ، وقرأ للإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه ، دلائل الإعجاز ، ص ٢٨٣ طبع المنار تعليقه على قول أبي الطيب من قصيدته اللامية في رثاء أخت سيف الدولة

وما تأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير نحر للهِلال
تر أنه إلى إمامته في الكلام والبلاغة إمام في النقد ، ولا بدع ، فلولا النقد ما كانت البلاغة ؛ قال بعد كلام طويل : ، واعلم أن هذا هو الصحيح في تفسير البيت ، والطريقة المستقيمة في الموازنة بين تأنيث الخلقه وتأنيث الاسم ، لا أن يقال إن المعنى : أن المرأة إذا كانت في كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة ، كانت من حيث المعنى رجلا وإن عدت في الظاهر امرأة ؛ لأجل أنه يفسد من وجهين : أحدهما أنه قال : ، ولا التذكير نحر للهِلال ، ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : إن الهِلال وإن ذكر في لفظه فهو مؤنث في المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل

أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلاً لتأنيث المؤنثة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيراً ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهِلال . هذا بين التناقض .

(٧) ثروة المتكلمين الأدبية :

ترك المتكلمون تراثاً أدبياً كريماً يتمثل فى كتب البلاغة والنقد وإعجاز القرآن ، وما ألفوه فى معانيه وألفاظه ومجازه . وفى كتب الطبقات وما فيها من تاريخ أدبى تحليلى لكبار من حوتهم من الأعلام ؛ ذلك إلى الجانب العظيم المائل فى المناظرات التى أخفت صوت الخطابة فى الدولة العباسية ، وإلى أشعار أدبائهم التى كانت بين صور خالصة من الأدب المصنئ فى أغراض شتى وصور أخرى حوت مبادئهم ومذاهبهم ؛ وقد حوت كتب التاريخ الكبيرة ، وكتب الفرق ، وموسوعات الأدب ، شيئاً كثيراً من هذا التراث الجليل ، وسنمثل بعد ببعض الصور .

(٨) أثر المتكلمين فى الألفاظ ومفرداتهم بها :

اضطر المتكلمون إلى خلق ألفاظ جديدة تعبر عما فى نفوسهم من معانٍ اقتضتها صناعة الجدل ، فقاضت أنهار مناظراتهم ومحاضراتهم بطائفة كبيرة من ألفاظ ربما أنكرها أهل اللغة أو لم يعرفوها ، أخذوها من العلوم التى درسوا كالفلسفة والمنطق وغيرهما ، فأضافوا بذلك ثروة جديدة إلى الألفاظ أحسنوا بها إلى اللغة ؛ ومهما يكن أصل هذه الألفاظ ، ومهما تكن قيمتها عند أهل اللغة ؛ فلا سبيل إلى إنكار أنها ثروة ومدد تحتاج إليه اللغة العربية ، إذ كان غناها فى الألفاظ لا يعدل غناها فى المعانى .

فأما مبلغ حقلهم فى مناظراتهم ومحاضراتهم بالألفاظ وتنميقها واختيارها ، فذلك ما تقرر أنه لم يكن يعنيه بقدر ما تعنيه المعانى يضعونها فى الألفاظ التى تواترهم ، جزلت أو سهلت ، علت أو انخفضت ؛ وذلك لا يبدو غريباً من قوم كانوا يطلبون للكلام أو يطلبونه كلما عرض عارض أو اقضى مة متض .

(٩) أثرهم في المعاني والرسائل :

فأما أثر المتكلمين في المعاني فيبدو واضحاً في الغوص عليها وابتكارها ودقة الإشارة إليها ، وفي ترتيبها ترتيباً منطقياً ، وفي تقديم المقدمة بين يدي النتيجة ، وفي الفرق في الاستنباط ، وقد صار لهم ذلك ملكة بكثرة ما جادلوا واطلعوا في كتب الأوائل .

(١٠) نثرهم وشعرهم :

إذا وازن الأديب بين نثر المتكلمين وشعرهم تبين فرقاً بين الأول والثاني : فهم في الأول أرسخ قدماً ، وأعز جانباً ، وأكثر تراثاً ، وأعزر معنى ، وأشرف قصداً وبحسبهم أن يكون منهم إمام المنشئين وسيد المترسلين وشيخ الصناعة ، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ . وأن يكون منهم أبو الحسين ابن العميد شيخ الطريقة المعروفة باسمه في الكتابة ؛ وهذا لا يمنع من أن لشعرائهم شعراً في فنون مختلفة له روعة وفيه جمال .

• للبحث بقية •

محمد موسى عفيفي

